Journal of Fundamentals of Religion
Vol. 7, No. 2 (December 2023) pp: 53-74
مجلة أصول الدين
المجلد 7 العدد 2 (ديسمبر 2023) ص ص: 53-74

مبدأ التدرج في الدعوة إلى الله "المفهوم – الأصول - نماذج للتطبيق"

د. محمد سالم عبد السيد
قسم أصول الدين، كلية الدعوة وأصول الدين، الجامعة الأسمرية الإسلامية، ليبيا
Mohamedalisalim23@gmail.com

ملخص البحث

إنَّ التدرج في الدعوة له أهمية عظيمة وآثار كبيرة في نجاحها الأمر الذي يدعو إلى بيانه ليتسنى للدعاة العمل به، لذلك كان عنوان هذا البحث:(مبدأ التدرج في الدعوة إلى الله "المفهوم – الأصول- نماذج للتطبيق")، وهو بحث يهدف إلى بيان أثر التدرج في الدعوة إلى الله، وأن له أسسًا دعوية لها تطبيقاتها العملية حتى تؤتي الدعوة ثمارها على أكمل وجه، وقد توصل هذا البحث إلى نتائج منها: إن الدعوة الإسلامية تميزت بأسلوب التدرج الذي يأخذ الإنسان تدريجياً إلى مافيه خير الهدى وطريق الرشاد، وأنَّ مبدأ التدرج في الدعوة إلى الله مستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

الكلمات المفتاحية: مبدأ التدرج- الدعوة إلى الله.

The principle of gradualness in calling to God “The Concept - Principles - Examples of Application”

Dr. Muhammad Salem Abdel Sayed
Department of Fundamentals of Religion, College of Da'wah and Fundamentals of Religion, Alasmarya Islamic University, State of Libya

Abstract

Calling to God Almighty means inviting others to goodness, guidance, and uprightness in the upright religion of God. The gradual progression in calling to God has a great status, since calling is the mission of the prophets.The mission of the messengers - peace be upon them - is to improve the condition of the one being called in this world and the hereafter, so the title of this research was: (The principle of gradualism in calling to God “The Concept - Principles - Examples of Application”), which is a research that aims to explain the effect of gradualism in calling to God, and that gradualism foundations of advocacy through its practical application so that the call

to bear its fullest fruit in the field of advocacy work. In this research, I reached results including: The Islamic call It is characterized by a gradual method that takes a person gradually to the best guidance and the path of guidance, and that the principle of gradualness in calling to God is derived from the Holy Qur'an and the Sunnah of the Prophet

.Keywords: The principle of gradualism - the call to God

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين:

أما بعد.

فإن الدعوة إلى الله تعالى تعني الدعوة إلى الخير والمعروف والاستقامة على دين الله المستقيم، ويدخل فيها دعوة غير المسلمين إلى الدخول في الإسلام، ودعوة المسلمين من العصاة والغافلين وغيرهم إلى طاعة الله، كما أنها تعني بيان أحكام الشريعة ونشر محاسنها وتوضيح حكمها وغاياتها، وحث الناس على التزامها، والعمل بها ترغيبا وترهيبا، بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن، شريطة أن يراعي في تعليم الناس هذه الأمور ليتم تغييرهم إلى الأحسن مبدأ التدرج، بحيث يتم تربيتهم بصغار العلوم قبل كبارها، أي أن العمل الدعوي له أولويات تتحدد من خلالها خطة الإصلاح بحيث تنفذ على مراحل يتم فيها نقل الناس من حال إلى حال بالتدريج.

إن مراعاة التدرج في الدعوة من المبادئ التي اعتمدتها الشريعة الإسلامية في ترسيخ أحكامها المتعلقة بتغيير الكثير من العادات المتأصلة في المجتمع، ومن الأمثلة على هذا ما انتهجه الإسلام في تقرير حكم الخمر، وكذلك حكم الربا، وغيرهما من الأحكام، كل ذلك مراعاة لسنن الله سبحانه في النفس البشرية والاجتماع الإنساني، فلو أن التحريم جاء دفعة واحدة لوقعت المشقة على أنفس الناس، مما يمنع من دخولهم إلى الإسلام، وعليه ينبغي لنا أن ندرك أهمية معرفة هذا المبدأ وكيفية العمل به في الدعوة إلى الله، لذلك كان عنوان هذه البحث: (مبدأ التدرج في الدعوة إلى الله "المفهوم – الأصول- نماذج للتطبيق").

إشكالية البحث

وهو بحث يناقش موضوعا قد يغفل عنه الكثير ممن تولوا أمر الدعوة والتربية والتعليم، مما يؤدي إلى نفور الناس وعدم استجابتهم، لذلك فإن هذا البحث يتناول مشكلة علمية لها واقع في مجال الدعوة والإصلاح.

أهمية البحث

- يعتبر البحث دراسة تأصيلية تعتمد على الكتاب والسنة في بيان مبدأ ذي أهمية في الدعوة إلى الله تعالى .

- تأتي أهمية هذا البحث في كونه يتناول مبدأ أساسيا من الدعوة والإصلاح له الكثير من التطبيقات العملية في مجالات الدعوة والتربية والتعليم، تشتد الحاجة إليه في عصرنا الحاضر.

أهداف البحث

يهدف البحث إلى بيان مبدأ التدرج في الدعوة وبيان تطبيقاته العملية حتى تؤتي الدعوة ثمارها على أكمل وجه، وذلك عن طريق تحقيق ما يلي من أهداف فرعية:

- التعريف بمبدأ التدرج وبيان حقيقته ومفهومه وأهميته.

- التأصيل للمبدأ من الكتاب والسنة.

- بيان التطبيقات العملية لهذا المبدأ من خلال عرض نماذج له.

منهج البحث

اتبع الباحث المنهج الوصفي مع الاستعانة بالمنهج الاستقرائي الاستنباطي، حيث سيعتمد الباحث على توصيف هذا المبدأ من خلال استقراء جزئياته واستنباط ما يتعلق بالتدرج من تطبيقات.

هذا وقد اقتضت طبيعة البحث أن يقسمه الباحث إلى ثلاثة مطالب كما يلي

المطلب الأول: التعريف بمفهوم التدرج.

سيتم في هذا المطلب بيان مفهوم التدرج وذلك عن طريق التعريف به لغة واصطلاحا وبيان أثره في الدعوة إلى الله حتى يتسنى معرفة مكانته وأهميته، وذلك وفق المحاور التالية.

أولا: مفهوم التدرج عند علماء اللغة:

التدرج عند علماء اللغة مأخوذ من درج[1]، ويعني المشي مشية الصاعد في الدَرَجِ، ومن ذلك قولهم استدرجه أي رقاه من درجة إلى درجة [2]، وعليه يمكن القول إن التدرج يعني الارتقاء من طبقة إلى طبقة أعلى منها في المرتبة.

ثانيا: التدرج عند علماء الاصطلاح:

وردت عدة تعريفات للتدرج ونذكر منها ما يتعلق بالتدرج في الدعوة ومن ذلك:

- "البدء بالأمور السهلة ثم الانتقال إلى غيرها من الأمور شيئاً فشيئاً حتى يعتاد المدعو التكاليف ويرغبها ولا ينفر منها"[3].

- "الانتقال من مرحلة إلى مرحلة أخرى متقدمة، للبلوغ إلى الغاية المنشودة، بطرق مشروعة مخصوصة"[4].

وعليه فإن التدرج الذي نقصده هنا هو: أن يتدرج الداعية بالمدعو شيئاً فشيئاً، للبلوغ به إلى الغاية المنشودة، وهي تكوين فرد مسلم وإعداده معنوياً وروحياً ونفسياً، لحمل الدعوة الإسلامية وتطبيقها في حياة المجتمع وبين الناس، وفق الطرق المشروعة والمستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة في الدعوة إلى الله.

---

[1] - مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، باب (الدال) ص: 85.

[2] -ينظر: المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، (277/1). بتصرف

[3] - ينظر: الدعوة إلى سبيل الله: أصولها وميادينها، عبد الخالق إبراهيم اسماعيل، دار الأمانة للطباعة والنشر:1987م، ص: 218.

[4] - ينظر: التدرج بين التشريع والدعوة، يوسف محي الدين أبو هلالة، ط1، المملكة العربية السعودية، دار العاصمة، 1412ه، ص:1.

ثالثا: أثر التدرج في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى.

تظهر أهمية التدرج في كونه من الأمور الأساسية التي تقوم عليها التربية في مفهومها وتطبيقاتها، فالمتأمل في تعريف العلماء الربانيين للتربية نجدهم يعرفونها بأنها: "تبليغ الشيء إلى كماله شيئاً فشيئاً"[1]، ولا يخفى على أحد العلاقة الوثيقة بين التربية والدعوة، إذ التربية وسيلة من وسائل الدعوة، كما أن العمل الدعوي يقوم على تربية الناس وتعليمهم، يقول تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾[2]، لذلك نجد أن أسلوب التدرج أسهم إسهاماً كبيراً في نجاح الدعوة، فقد جاءت ثماره الطيبة المباركة في ترسيخ الدعوة في نفوس المدعوين الذين استجابوا لها، حيث ساعدهم على تلقي ما جاء به الإسلام والعمل به دون مشقة، فكلما تعلموا شيئاً من النبي الكريم صلى الله عليه وسلم سارعوا إلى تطبيقه والعمل بما جاء به، ثم ينتقلون إلى ما بعده يتعلمون ويعملون، وهذا مما سجله لنا الصحابي الجليل وأحد قراء القرآن في عصره، عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، عندما قال: (كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بما جاء فيهن) [3]، ومن الممكن بيان بعض مزايا أسلوب التدرج، وبيان بعض آثاره في الدعوة إلى الله من خلال ما يلي:

- يعد التدرج من المبادئ الأساسية التي تقوم عليها الدعوة إلى الله تعالى، فالمتأمل في قصص الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام في القرآن الكريم، يجد أنهم جميعاً قد استخدموا التدرج في الدعوة إلى الله تعالى، لما له من أثر كبير في ترسيخ الدعوة في نفوس المدعوين، ويظهر هذا واضحاً جلياً من خلال تقديمهم الأهم على المهم، فقد بدأوا جميعاً بالدعوة إلى عبادة الله وحده والعمل على تثبيت الإيمان في النفوس، لأن العقيدة الصحيحة متى ما انطبعت في نفس المدعو

1 - البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: 1224هـ)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة، 1419 هـ، (1 / 54).

2 سورة الجمعة: الآية 2.

3 - ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ - 2000م باب: ذكر بعض الأخبار التي رويت في الحض على العلم، (74/1).

وأيقن بصدقها وعمل بمقتضاها، صارت سداً منيعاً يقيه كل من شأنه أن يوقعه في المنكر، واكسبته السكينة وهدوء النفس والبال، وجعلت منه شخصاً سباقاً إلى أعمال الخير والفضيلة، وهذا السلوك الراشد سينعكس ولا شك على المدعوين[1].

كما أن مبدأ التدرج من المبادئ التي قامت عليها دعوة سيد الأنبياء والمرسلين، وإمام الدعاة عليه أفضل الصلاة والسلام، فقد بدأ دعوته إلى الإسلام بإصلاح القلوب وتطهيرها من الوثنية والشرك، وذلك بتقويمها بعقائد الإيمان الصحيحة الراشدة، فقد ظل ثلاثة عشر عاماً وهو يدعو إلى عبادة الله وحده وترك الشرك حتى إذا ما استقرت العقيدة في القلوب والنفوس، وأيقن الناس بصدقها وشعروا بمسؤولية البعث والجزاء، واستقاموا على هذا الدين القويم، فطمهم عن أقبح العادات وأرذل الأخلاق وقادهم إلى أصول الآداب وفضائل العادات، ثم كلفهم ما لابد منه من أمهات العبادات، وهذا ما كان في مكة، ولما مرنوا على ذلك وتهيأت نفوسهم للترقي والكمال، وكانوا وقتئذ قد هاجروا إلى المدينة جاءهم بتفاصيل التشريع والأحكام وأتم عليهم نعمته ببيان تعاليم الإسلام. [2]

- إن مبدأ التدرج في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى يتيح للعاملين في مجال الدعوة فرصة كبيرة لتعهد الذين استجابوا للدعوة الإسلامية، وتنويرهم وتبصيرهم بمعالم الدين الإسلامي الحنيف، وتثبيتهم عليه تدريجياً، وذلك بدعوتهم، إلى تعاليم الإسلام وتعليمهم معالمه وما جاء فيه من معاني عظام، وأفكاره شيئا فشيئاً مع تقديم الأهم فالأهم، وحملهم على تطبيق ما تعلموه، وصياغة سلوكه بموجبه ومقتضاه[3]، ومن هنا تظهر أهمية التدرج في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، وآثاره الدعوية العميقة في ترسيخ الدعوة إلى الله في نفوس المدعوين الذين استجابوا لدعوة الإسلام، وآمنوا بها، بدليل ما ذكرت آنفاً من أن جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام

[1] - ينظر: التربية في السنة النبوية، لأبي لبابة حسين، دار اللواء، الرياض، ص: 11-12، بتصرف.

[2] - ينظر: مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر - بيروت، ط1، 1996م، تح: مكتب البحوث والدراسات (1/ 181- 182) بتصرف.

3 - ينظر: أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط9، 1421هـ-2001م ص: 472-473، بتصرف.

ومن بينهم رسولنا الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد استعملوا مبدأ التدرج في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى مع المدعوين، وكان لذلك الأثر الكبير في ثباتهم، مما جعل كل من دخل في دين الإسلام وآمن به وتمكن الإيمان في قلبه لا يرضى بأي بديل عن دين الله سبحانه وتعالى، مهما كانت المغريات الدنيوية، ومهما لحق به من الأذى، بل يظل ثابتا على دينه، وخير مثال على ذلك ما حدث مع الصحابي الجليل عمار بن ياسر رضي الله عنهما، هذا البطل المؤمن المجاهد قد لاقى من العذاب هو ووالداه شيئاً كثيراً وقد قال نبينا الكريم عنهم في ذلك قولته المشهورة التي خلدها التاريخ و أصبحت مثلاً يضرب في الأقوال المشهورة، فعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رضي الله عنهما - قَالَ:" مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - بِعَمَّارٍ وَأَهْلِهِ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فَقَالَ: صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ "[1].

- إن الاستعجال بدعوة الناس إلى جميع الفرائض في وقت واحد يؤدي إلى عدم الاستجابة والنفور من الدعوة، لهذا كان مبدأ التدرج أنجع الأساليب لتمكينه المدعو من تنفيذ ما يؤمر به أو ينهى عنه[2]، لذلك لا تقدم الدعوة جملة واحدة فتنفر منها النفوس، وإنما تقدم الدعوة بواسطته تدريجياً شيئاً فشيئاً حسب قدرات المدعوين واستعداداتهم، ليكون ذلك حافزاً لهم على الحفظ والفهم والتطبيق، وقد كان ذلك حيث الصحابة رضي الله عنهم العلم والعمل به معاً، وعلى كل، فقد كان منهج التدرج من أهم العوامل التي أدت إلى تثبيت الدعوة وترسيخها في نفوس المدعوين، والإقبال عليها برغبة واشتياق، وكذلك أدى إلى زيادة عدد المسلمين يوماً بعد يوم، ولم يدخل في الإسلام أحد ويثبت الإيمان في قلبه ثم يتركه رغبة عنه، هذا ما يؤيده الحوار الذي دار بين هرقل وأبي سفيان، في الحديث الذي رواه البخاري والذي جاء فيه أن هرقل سأل أبا سفيان عدة أسئلة وبين له سببها ومن هذه الأسئلة سؤال تعلق بوضع المدعوين عندما قال" فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت، بل ضعفاؤهم، قال أيزيدون أم ينقصون؟ قلت بل يزيدون، قال فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟، قلت لا ...(وفي الحديث

[1] - صهيب عبد الجبار، الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، باب: مناقب عمار بن ياسر رضي الله عنه، حديث رقم: 13، (554/4).
[2] - ينظر: الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها، رؤوف شلبي، دار القلم، ط3، ص: 265-266، بتصرف.

قال هرقل لأبي سفيان) وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب"[1]، ولا شك أن هذه الزيادة وهذا الثبات على الإيمان كانت نتيجته لرسوخ الدعوة في نفوسهم، وتمكنها من قلوبهم، وتقديمها لهم عن طريق منهج التدرج الذي يراعى استعدادات النفوس البشرية، فيقدم لها ما يناسبها، ويسهل عليها فهمه وحفظه وتطبيقه، ولذلك فقد كان عاملاً أساسياً من عوامل ترسيخ الدعوة في نفوس المدعوين، وثبات من آمن على الإسلام مهما عرضت عليه من مغريات مادية أو معنوية، ومهما لاقى في سبيله من تنكيل وتعذيب باقٍ على دعوة الهدى ونور الحق، فهاهم آل ياسر يلاقون أشد أنواع التعذيب والتنكيل من كفار قريش، والرسول الكريم يقول لهم في الحديث المروي عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ - رضي الله عنهما - قَالَ:" مَرَّ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - بِعَمَّارٍ وَأَهْلِهِ وَهُمْ يُعَذَّبُونَ فَقَالَ: صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ، فَإِنَّ مَوْعِدَكُمُ الْجَنَّةُ "[2].

- إن مما يظهر لنا أهمية مبدأ التدرج أن الدعوة حين جاءت بدأت تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، تأمر بالمساواة والعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي، ولم تأت بتعاليمها فيما يتصل باقتلاع الرذائل وغرس الفضائل طفرة، ولم تدع إلى ذلك دفعة واحدة، وإنما أخذت بمبدأ التدرج وأخذت أوامر الدعوة ونواهيها تتدرج مع الناس على حسب ما يصلحهم وبمقدار ما ينفعهم وكان رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام حين يصدر أوامره أو نواهيه يصدرها بما يعالج به الناس، وبما يشفي أمراضهم وأسقامهم، وكان إذا سأله سائل أجابه بما يليق بحاله وما ينبغي عليه أن يقوم به، وهذا ما ينبغي أن يكون عليه الداعية الذي يدعو إلى دين الله سبحانه وتعالى ويقوم بدعوة المجتمع وإصلاحه، لابد أن يكون كالطبيب الماهر الذي يصف لكل مريض ما يناسبه من الدواء والعلاج، فليس لكل المرضى علاج واحد،

[1] - البخاري، صحيح البخاري، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، حديث رقم:7، (1/8-9)

[2] - صهيب عبد الجبار، الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، باب: مناقب عمار بن ياسر رضي الله عنه، حديث رقم: 13، (4/554).

إذ ليست الأمراض واحدة وإنما هي مختلفة وأنواع العلاج بالنسبة إليها أيضاً مختلفة وما يصلح لإنسان لا يصلح لغيره، كما أنه لا يعطى للمريض العلاج كله دفعة واحدة ولا يسقى الدواء جميعه في مرة واحدة، وإذ لو فعل ذلك ما كان لعلاجه جدوى، وما استطاع أن يقوم المريض بتنفيذ ولو أخذه ما أفاده بل أضره وربما قضى على حياته، وهكذا الحال بالنسبة للداعية فإنه يجب عليه أن يعطى كل إنسان أو قوم ما يناسبهم، وأن يتدرج معهم فيما يدعوهم إليه من فضائل وفيما ينهاهم عنه من رذائل، عن ابن عباس رضي الله عنه قال : قدم وفد عبد القيس على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقالوا : يا رسول الله، إنا هذا الحي من ربيعة، وقد حالت بيننا، وبينك كفار مضر، فلا نخلص إليك إلا في شهر الحرام، فمرنا بأمر نعمل به، وندعو إليه من وراءنا، قال :" آمركم بأربع، وأنهاكم عن أربع : الإيمان بالله، ثم فسرها لهم، فقال : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدوا خمس ما غنمتم، وأنهاكم عن الدباء، والحنتم، والنقير، والمقير[1]" [2].

[1] - و(الدباء) القرع اليابس، و(الحنتم) جرَارٌ خُضرٌ، و(النقير) جذع ينقر وسطه، و (المقير) المزفت المطلي بالقار، فنهى عن الانتباذ فيها وهو أن يجعل في الماء حبات من تمر أو زبيب أو نحوهما ليحلو ويشرب، وخصصت بالنهي لأنه يسرع الإسكار فيها. فتح المنعم شرح صحيح مسلم، موسى شاهين لاشين، دار الشروق، ط1، دار الشروق، 1423 هـ - 2002 م، باب وفد عبد القيس وأمور الإسلام، (1/ 60).

2 - مسلم، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، حديث رقم: 23، (1/ 35).

المطلب الثاني: التأصيل لمبدأ التدرج في الدعوة إلى الله تعالى.

إن مبدأ التدرج من المبادئ التي قامت عليها دعوة الإسلام، دل على ذلك ما يلي:

- إن أول دليل يمكن أن نستدل به على مبدأ التدرج في الدعوة هو نزول القرآن الكريم منجما، يقول تعالى: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [1]،ذلك لأن من الحكم الإلهية من نزول القرآن منجما " مراعاة مقتضيات التدرّج في التشريع، وتربية الجماعة، ونقلها على مراحل من حالة إلى حالة أحسن من سابقتها، وإسبال الرحمة الإلهية على العباد، فإنّهم كانوا في الجاهلية في إباحية مطلقة، فلو نزّل عليهم القرآن دفعة واحدة، لعسر عليهم التكليف، فنفروا من التطبيق للأوامر والنواهي"[2]، أخرج البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: (إِنَّمَا نَزَلَ أَوَّلَ مَا نَزَلَ مِنْهُ سُورَةٌ مِنَ المُفَصَّلِ، فِيهَا ذِكْرُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، حَتَّى إِذَا ثَابَ النَّاسُ إِلَى الإِسْلاَمِ نَزَلَ الحَلاَلُ وَالحَرَامُ، وَلَوْ نَزَلَ أَوَّلَ شَيْءٍ: لاَ تَشْرَبُوا الخَمْرَ، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الخَمْرَ أَبَدًا، وَلَوْ نَزَلَ: لاَ تَزْنُوا، لَقَالُوا: لاَ نَدَعُ الزِّنَا أَبَدًا) [3].

- أمر الله سبحانه وتعالى لرسوله صلى عليه وسلم بأن يعتمد مبدأ التدرج في الدعوة وذلك بالانتقال من الأعم إلى الأخص في قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [4]، فهذه الآية المباركة بينت للرسول صلى الله عليه وسلم وللدعاة من بعده طريق التدرج في الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى بخطوات مرتبة، ترتيباً منطقياً، مع بيئة المدعوين وما يتناسب معهم من أسلوب، ومدى تقبلهم للدعوة، يقول ابن القيم: "جعل الله سبحانه مراتب الدعوة بحسب مراتب الخلق فالمستجيب القابل الذكي الذي لا يعاند الحق ولا يأباه، يدعى بطريق

1 - سورة الإسراء، الآية:106.

2- التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط2، 1418 هـ، (1 / 16)

3 - البخاري، صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب تأليف القرآن، حديث رقم: 4993، (6 / 185)

4 - سورة النحل، الآية:125.

الحكمة، والقابل الذي عنده نوع غفلة وتأخر، يدعى بالموعظة الحسنة، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المقرون بالترغيب والترهيب، والمعاند الجاحد، يجادل بالتي هي أحسن"[1].

- بَيَّنَ الله سبحانه وتعالى أن انتهاج هذا المبدأ من الأمور المأمور بها يقول تعالى:(مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ) [2]،"والرباني: هو الذي يُربي الناس ويؤدبهم ويُهذبهم بالعلم والعمل، وقال ابن عباس: (هو الذي يُربي الناس بصغار العلم قبل كباره)" [3].

- وكذلك بَيَّنَ رسول الله عليه وسلم سبيل الدعوة وطريقها في اعتماد مبدأ التدرج للدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، لمعاذ بن جبل رضي الله عنه عندما بعثه إلى اليمن قال له: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْماً مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ، فَادْعُهُمْ إِلى شَهَادَةِ أَنْ لا إِلهَ إِلا اللهُ، وأَنِّي رَسُولُ اللهِ، فَإِنْ هُمْ أَطاعُوا لِذلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَومٍ وَلَيلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ تَعَالَى افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذلِكَ، فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، واتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيْسَ بَينَهَا وبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ»[4]، ففي هذا الحديث المبارك يعلم الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الصحابي الجليل معاذ بن جبل رضي الله عنه كيفية الدعوة إلى الله سبحانه وتعالى، ويأمره أن يتدرج في دعوته خطوة بخطوة، تخفيفاً على العقل في القبول، وتوطئة للتنقل من مرحلة إلى المرحلة التي تليها عن طريق الرغبة والاشتياق، لأن نفوس البشر تألف التمرد والاعوجاج إذا بوشرت بالإصلاح دفعة واحدة، بل إنها تعتبر ذلك مصادمة لها[5].

1- ينظر: مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ، 1998م ص: 171، بتصرف.

2 - سورة آل عمران، الآية:79.

3- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد، ابن عجيبة، (1 /373)

4 - فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر العسقلاني، حديث رقم: 1401، باب أخذ الصدقة من الأغنياء وترد في الفقراء، (123/5)، وشرح النووي على مسلم، يحي بن شرف النووي، حديث رقم 27، باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام، (1/ 89). والحديث متفق عليه في الصحيحين.

5- ينظر: الدعوة الإسلامية مناهجها ومعالمها، أحمد عمر هاشم، مكتبة غريب، ص:23، وفقه السيرة، للبوطي، ص: 116،

المطلب الثالث: نماذج من التدرج في الدعوة إلى الله

إن المتتبع لتاريخ الدعوة يجد أنها انتهجت مبدأ التدرج في تغييرها للكثير من العادات والأخلاق المترسخة في المجتمع، ويظهر ذلك جليا في معالجة الكثير من الأمور والتي تعد نماذج لمبدأ التدرج كما تعد من الأدلة على هذا المبدأ، ومن ذلك:

أولا: التدرج في تحريم الخمر:

كان شرب الخمر من العادات المترسخة في المجتمع الجاهلي، مما أدى إلى أن تركها مرة واحدة أمر في غاية الصعوبة، ولهذا لم يؤمرهم الله سبحانه وتعالى بتركها في بادئ الأمر مرة واحدة؛ بل تركهم على شربها مدة مكث النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، ولما هاجر صلى الله عليه وسلم إلى المدينة، واستقر الإيمان في نفوس المسلمين، سلكت الدعوة الإسلامية مسلك التدرج في تحريمها عبر مراحل متتالية:

المرحلة الأولى: إشعار الناس بأن الخمر ليست بالرزق الحسن، مما أدى إلى كراهيتها من قبل بعض الصحابة وتركها، يقول تعالى: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [1]، فكانت أول ما يطرق في الحس من وضع السكر وهو المخمر في مقابل الرزق الحسن، فكأنما هو شيء والرزق الحسن شيء آخر [2].

المرحلة الثانية: بيان أن ضررها أعظم من نفعها، مما يدعو إلى نوع من الموازنة بين شربها وتركها، وهذا ما جعل الكثير من الناس يسعى إلى النفع ويتجنب ضررها من باب الأولى، وهذه المرحلة جاءت في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ [3]، وفي هذا دليل على أن تركهما هو الأولى ما دام

[1]- سورة النحل الآية:67.

[2] - ينظر: التدرج في تطبيق الشريعة الإسلامية (دراسة فقهية مقارنة)، جهاد داود سليمان شحادة، دار النشر: كلية الدراسات العليا- جامعة القدس، ص: 22، بتصرف.

[3] - سورة البقرة، الآية:219.

الإثم أكبر من النفع، إذ أنه قلما يخلو شيء من نفع، ولكن حله أو حرمته إنما ترتكز على غلبة الضر أو النفع [1].

المرحلة الثالثة: التحريم الجزئي وذلك بالنهي عن شربها في وقت أداء الصلاة، كي لا تذهب بعقول المصلين في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [2]، والصلاة في خمسة أوقات معظمها متقارب ولا يكفي ما بينها للسكر ثم الإفاقة، وفي هذا تضييق لفرص المزاولة العملية للشراب وتحلل تدريجي من الإدمان [3].

المرحلة الرابعة: التحريم الكلي والنهائي في قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ [4]، وذلك بعد تهيأت النفوس لها تهيؤاً كاملاً، فلم يكن إلا النهي حتى تتبعه الطاعة الفورية بعد ذلك والإذعان، ولم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد في نوادي المدينة ففي الحديث الشريف المروي عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه قال (كنت ساقي القوم يوم حرمت الخمر في بيت أبي طلحة وما شرابهم إلا الفضيخ البسر والتمر فإذا مناد ينادى فقال اخرج فانظر فخرجت فإذا مناد ينادي ألا إن الخمر قد حرمت قال فجرت في سكك المدينة فقال لي أبو طلحة اخرج فأهرقها فهرقتها فقالوا أو قال بعضهم قتل فلان قتل فلان وهي في بطونهم قال فلا أدري هو من حديث أنس) [5]، فأنزل الله عز وجل ﴿ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [6].

---

[1] - ينظر: تاريخ التشريع الإسلامي دراسات في التشريع وتطوره ورجاله، علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود، تحقيق: إبراهيم علي أبو الخشب- وعبد العزيز عزت، دار الكتب العلمية بيروت، ط 2000، ج/1، ص: 106، بتصرف.

[2] - النساء، الآية:43.

[3] - منهج القرآن الكريم في التدرج وأثره في التغيير، أحمد فريد صالح أبو هزيم، ط 2011م، ص: 58.

[4] - المائدة، الآيتان 90-91.

[5] - مسلم، صحيح مسلم، حديث رقم 1980، (1570/3).

[6] - المائدة، الآية: 93.

ثانيا: التدرج في تحريم الربا:

انتشرت ظاهرة ممارسة الربا في المجتمع الجاهلي، ونظرا لأضراره الجسيمة كان من الضرورة أن يحرم لحفظ المال ولتحقيق العدل بين الناس، ولتحرير الفقراء من ظلم ا لأغنياء المرابين، إلا أن الحكمة ف الدعوة تقتضي أن يحرم على مراحل، فجاء تحريمه على أربع مراحل متدرجة:

المرحلة الأولى: ذم الربا وبيان أنه لا ثواب يرجى منها ومدح الزكاة مقابل ذلك، وكان هذا قبل فرض الزكاة، يقول المولى في محكم تنزيله حاثاً على الزكاة وذاما الربا: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [1].

المرحلة الثانية: بيان أنه محرم على بني إسرائيل، وبيان ما آلوا إليه بسبب تعاملهم بالربا وأكلهم له، وهو نوع من التلميح جاء في عرض قصة بني إسرائيل ومخالفتهم لأوامر الله وأكلهم الربا، وفي ذلك تمهيدا وإيماء إلى إمكان تحريمه على المسلمين وتنبيه إلى ضرورة اجتنابه حتى لا يلقوا العذاب الأليم، يقول المولى الحق في ذلك: ﴿فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [2]، ويفهم من هذه الآية المباركة إن المقصود تحريمه عن المسلمين ولكن بتلميح دون تصريح.

المرحلة الثالثة: التحريم الجزئي بالنهي عن الربا الفاحش، الذي يتزايد أضعاف مضاعفة، وذلك تمهيداً لتحريمه مرة واحدة، يقول الحق في محكم تنزيله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [3].

[1] - سورة الروم، الآية:39.

[2] - النساء، الآية:160.

[3] -آل عمران، الآية:130-131.

المرحلة الرابعة: التحريم الكلي وذلك بعد ما أقلع الناس عن أكل الأضعاف المضاعفة منه، وتهيأت نفوسهم لحكم الله القاطع واستعدت لتركه، حرم عليهم الربا جملة واحدة، يقول الحق في محكم تنزيله: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [1].

ثالثا: التدرج في بناء الأخلاق:

إن من الأمور الثابتة التي عملت الدعوة الإسلامية في معالجتها التكوين السلوكي والأخلاقي للمدعوين، وذلك بعد أن فرغت من تقرير عبادة الله وحده لا شريك له في النفوس، وتثبيتها لمفهوم الإيمان بأركان الإسلام إيمانا معنوياً وعملياً، ذلك أن السمو الأخلاقي لا يكون وليد الصدفة، وإنما يكون منبعه من الإيمان العميق الذي استقر في القلوب حتى يصبح طبعاً، ولهذا كان للقرآن العظيم والسنة النبوية دور أساسي في التغيير التدريجي للسلوك الإنساني في المرحلة المكية، والرقي به إلى التحلي بمكارم الأخلاق، والبلوغ بهم أعلى درجات الفضيلة في المرحلة المدنية، فعَن أبي هُرَيرة، عَن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق"[2]، ولا يكون ذلك إلا بتهذيب النفس وتربيتها على الفضائل الشريفة والخصال الحسنة الرفيعة والعادات الطيبة المباركة الحميدة.

المرحلة الأولى: الدعوة إلى أصول مكارم الأخلاق: لقد سلك القرآن الكريم والسنة النبوية المباركة الشريفة في العهد المكي مسلك التدرج في تربية النفوس وتهذيبها، حيث ابتدأت الدعوة إلى أصول الأخلاق من العدل والصدق وصيانة الأمانة والعفة، مراعية في ذلك التدرج من ناحية الوجوب، ومن حيث حاجة الفرد إليها، وأداؤها عليه أوجب، وقد جاءت الأدلة تؤكد اهتمامه صلى الله عليه وسلم بهذا الجانب، في عهد مبكر من دعوته، ومن ذلك ما رواه أبو سفيان بن حرب رضي الله عنه في حديثه الطويل في قصة هرقل: أن هرقل قال لأبي سفيان:

[1] - البقرة، الآيات: 278-279-280.

[2] - البزار، مسند البزار، باب مسند أبي هريرة، حديث رقم: 8949، (476/2).

فماذا يأمركم به؟ يعني النبي صلى الله عليه وسلم، قال قلت: " يَأْمُرُنَا أَنْ نَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا، وَنَهَانَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ، وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ والصلة" [1].

ويؤكد هذا كلام جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه مع النجاشي، قوله" أمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئًا، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام ـ فعدد عليه أمور الإسلام ـ فصدقناه، وآمنا به، واتبعناه على ما جاءنا به من دين الله، فعبدنا الله وحده، فلم نشرك به شيئًا، وحرمنا ما حرم علينا، وأحللنا ما أحل لنا" [2]، فدلّ هذا الحديث على أن هذا كان حاله صلى الله عليه وسلم مع قومه في الابتداء بدعوتهم بالتدرج للتحلي بأصول الأخلاق.

المرحلة الثانية: الدعوة بالتدرج إلى التحلي بمكارم الأخلاق

عندما هاجر صلى الله عليه وسلم وطبق المسلمون الإسلام وامتد ميدان الدعوة اتسعت البيئة، أصّل الرسول صلى اله عليه وسلم في الدعوة بالتدرج إلى ركائز أخرى في أخلاق المسلمين من التآخي والتراحم والتعاون وترك التباغض والتحاسد، حيث أن حاجة الأمة الإسلامية إلى هذه الأخلاق أشد، ممتثلاً لقول الحق تبارك وتعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [3]،وقوله جل جلاله:﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ [4].

[1]- مسلم، صحيح مسلم، كتاب، باب من انتظر حتى تدفن، حديث رقم2941، (4/ 46)

[2] - الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، باب مكيدة قريش بمهاجري الحبشة، دار الهلال – بيروت، ط1، (77/1).

[3] - الحجرات، الآية:10.

[4] - الحجرات، الآية:12.

فكان رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام يدعو صحابته الكرام في هذه المرحلة إلى المودة والمحبة والتآخي، وينهاهم فحش الأخلاق [1]، يدل على ذلك حديث أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تنافسوا ولا تدابروا ولا تحاسدوا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخوانا" [2].

نقل ابن حجر في فتح الباري في شرحه للحديث عن القرطبي في معنى الأخوة أنه قال:" الْمَعْنَى كُونُوا كَإِخْوَانِ النَّسَب فِي الشَّفَقَة وَالرَّحْمَة وَالْمَحَبَّة وَالْمُوَاسَاة والنصيحة وَالْمُعَاوَنَة" [3].

وكان رسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام يدعو إلى هذه الفضائل الحسنة المباركة بالثناء على صاحب الخلق الحسن، وأتي نبي الله صلى الله عليه وسلم بأشج عبد القيس فقال "إن فيك خلتين يحبهما الله الحلم والأناة قال يا رسول الله أنا أتخلق بهما أم الله جبلني عليهما قال بل جبلك الله عليهما قال الحمد لله الذي جبلني على خلتين يحبهما الله ورسوله "[4]، فبين في هذا الحديث المبارك أن فيه خصلتين من الأخلاق الحسنة وأثنى عليه بهما مبيناً أن الله يحبهما، فالله يحب من عباده ما جبلهم عليه من الأخلاق القيمة النبيلة وفي ثناء النبي الكريم محمد صلى الله عليه وسلم على هذا الرجل دعوة له ولغيره إلى مثل هذه الأخلاق القيمة النبيلة التي يحبها المولى سبحانه وتعالى والتي فيها الخير والبركة لأمة الإسلام وبها صلاح أحوالهم.

ركز النبي صلى الله عليه وسلم في هذه المرحلة على تربية أصحابه على مثل هذه الأخلاق المباركة، وتحذيرهم من الأخلاق السيئة التي تجعلهم يتشبهون بصفات المنافقين أو يتحلون بها، والمتدبر في منهج الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في أسلوب تربيته لأصحابه في معالجة الجانب السلوكي لهم، يدرك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سلك في تربية أصحابه مسلكا متدرجاً

[1] - ينظر: التدرج في دعوة النبي- صلى الله عليه وسلم-، إبراهيم بن عبد الله المطلق، ط1، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - مركز البحوث والدراسات الإسلامية، 1417هـ، ص: 44، بتصرف.

[2] - البخاري، الأدب المفرد، باب: الظن، (438/1).

[3] - فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر العسقلاني، باب: ما ينهى عن التحاسد والتدابر، حديث رقم: 5604، (231/17).

[4] - البيهقي، سنن البيهقي الكبرى، باب: في قبلة الجسد، حديث رقم:13365، (102/7).

للبلوغ بهم إلى قمة الرقي السلوكي والأخلاقي حيث ابتدأ بدعوتهم أولاً إلى الأصول والأسس الأخلاقية في العهد المكي ثم تدرج معهم في الدعوة للتحلي بمكارم الأخلاق والسمو بهذا الجانب في العهد المدني، لما فيه خيرهم وصلاحهم في الدنيا والآخرة.

الأثر من التدرج في الدعوة إلى الأخلاق الكريمة يتبين فيما يلي:

ومن الممكن أن نبينه فيما تقدم، التأكيد على ضرورة التزام الدعاة بالتدرج في الموضوعات الدعوية وتنسيقها حسب الحاجة الشرعية لها، فلا يقدم موضوعاً على آخر هو أهم منه، وذلك أن الأصل في أولويات الدعوة الذي يجب على الداعية الالتزام به في عرض دعوته هو ضرورة البدء بالدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وبيان عقيدة أهل السنة والجماعة في ذلك، كونها الأساس الذي تقوم عليه الدعوة الإسلامية، ثم ينتقل بالدعوة إلى الالتزام بالتشريع الإسلامي بما في ذلك بيان أركان الإسلام، وكل ما يتصل بها من أحكام فقهية وتعاليم دينية، ثم تجيء الموضوعات الإسلامية الدعوية على حسب أهميتها وتقديم الشارع الحكيم لها وفقاً لطبيعة البلد أو المجتمع واحتياجاته الدعوية لها، وذلك أنه من الحكمة في الدعوة مراعاة أحوال المدعوين والرفق بهم أثناء دعوته لهم.

الخاتمة:

ونتضمن أهم النتائج التي توصلت إليها في هذا البحث منها:

1-يعد التدرج في الدعوة إلى الله من المناهج والأساليب الدعوية الناجحة باعتباره تقديم الدعوة شيئاً فشيئاً حسب ما تقتضيه أحوالهم وظروفهم التي يعيشونها المدعوين.

2-إن التدرج في الدعوة إلى الله مستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة المطهرة ولهذا كان من أهم أسباب نجاح الدعوة الإسلامية، والبرهان والدليل على ذلك مبدأ التدرج في تحريم الخمر، ووصاية الرسول صلى الله عليه لسيدنا معاذ بن جبل رضي الله عنه حينما بعثه إلى اليمن.

3-إن التدرج في الدعوة الإسلامية منهج أخلاقي تربوي إسلامي يراعي قدرات المدعوين واستعدادهم للاستجابة إلى الحق وقبوله، فلا يكلف المدعوين ما لا يستطيعون، وبذلك استخدام التدرج في الدعوة يؤدي إلى انتشار الدعوة الإسلامية وقبولها في نفوس المدعوين.

4-إن مبدأ التدرج له آثاره الإيجابية في الدعوة إلى الله متى ما استعملت وفق أمورها الشرعية وفي إطارها المحدد من خلال تهيئة النفوس لقبول الحق وكذا التسهيل على المدعوين واستمالتهم وتهيئتهم لغرض الحصول على الاستجابة لدعوة الحق.

5-إن الدعوة الإسلامية تميزت بأسلوب التدرج الذي يأخذ الإنسان تدريجياً إلى ما فيه خير الهدى طريق الرشاد، واتباع الطريق المستقيم.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص:

1- الأدب المفرد، محمد بن إسماعيل أبو عبد الله البخاري، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار البشائر الإسلامية – بيروت، ط2، 1409 – 1989 م.

2- أسواق العرب في الجاهلية والإسلام، سعيد بن محمد بن أحمد الأفغاني، ط:3، دار الفكر، القاهرة.

3- أصول الدعوة، عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط9، 1421هـ-2001م.

4- البحر الزخار من مسند البزار، أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق: محفوظ الرحمن زين الله، وآخرون، ط1، مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة.

5- تاريخ التشريع الإسلامي دراسات في التشريع وتطوره ورجاله، علي محمد معوض – عادل أحمد عبد الموجود، تحقيق: إبراهيم علي أبو الخشب- وعبد العزيز عزت، دار الكتب العلمية بيروت، ط 2000.

6- التدرج بين التشريع والدعوة، يوسف محي الدين أبو هلالة، ط1، المملكة العربية السعودية، دار العاصمة، 1412هـ.

7- التدرج في تطبيق الشريعة الإسلامية (دراسة فقهية مقارنة)، جهاد داود سليمان شحادة، دار النشر: كلية الدراسات العليا- جامعة القدس.

8- التدرج في دعوة النبي صلى الله عليه وسلم، إبراهيم بن عبد الله المطلق، ط1، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد - مركز البحوث والدراسات الإسلامية، 1417هـ.

9- التربية في السنة النبوية، لأبي لبابة حسين، دار اللواء، الرياض، ط 2005م.

10- جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط1، 1420 هـ - 2000 م.

11- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، صهيب عبد الجبار، ط:1429هـ.

12- خصائص المنهج الإسلامي في القرآن الكريم، علي بن نايف الشحود، د.ت، د.ط.
13- الدعوة الإسلامية في عهدها المكي مناهجها وغاياتها، رؤوف شلبي، دار القلم، ط3.
14- الدعوة الإسلامية مناهجها ومعالمها، أحمد عمر هاشم مكتبة غريب.
15- الدعوة إلى سبيل الله: أصولها وميادينها، عبد الخالق إبراهيم اسماعيل، دار الأمانة للطباعة والنشر:1987م.
16- الدعوة قواعد وأصول، جمعة أمين عبد العزيز، دار الدعوة، ط4، 1999م.
17- الرحيق المختوم، صفي الرحمن المباركفوري، دار الهلال – بيروت، ط1.
18- سنن البيهقي الكبرى، أحمد بن الحسين البيهقي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، 1424هـ.
19- السيرة النبوية تربية أمة وبناء دولة، صالح أحمد الشامي، المكتب الإسلامي، بيروت، ط3، 2014م.
20- شرح النووي على مسلم، يحي بن شرف النووي، أبو زكريا يحيى بن شرف بن مري النووي دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط2، 1392.
21- صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط1، 1422هـ.
22- صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسين القشيري النيسابوري تحقيق: فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي – بيروت.
23- فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر العسقلاني تحقيق: شعيب الأرناؤوط، وآخرون دار الرسالة العالمية ط1، 1434هـ.
24- فتح المنعم شرح صحيح مسلم، موسى شاهين لاشين، ط1، دار الشروق، 1423 هـ - 2002 م.
25- فقه السيرة مع موجز لتاريخ الخلافة الراشدة، محمد سعيد رمضان البوطي دار الفكر،2009م.

26- لسان العرب، جمال الدين ابن منظور دار صادر- بيروت، ط1414،3هـ.
27- مختار الصحاح، محمد بن أبي بكر الرازي، تحقيق: محمود خاطر.
28- المعجم الوسيط، إبراهيم مصطفى وآخرون، تحقيق مجمع اللغة العربية، دار الدعوة.
29- مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، محمد بن أبي بكر ابن القيم الجوزية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1419هـ، 1998م.
مكتبة لبنان ناشرون – بيروت، 1415 – 1995.
30- مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، دار الفكر - بيروت، ط1، 1996م، تحقيق: مكتب البحوث والدراسات.
31- منهج القرآن الكريم في التدرج وأثره في التغيير، أحمد فريد صالح أبو هزيم، ط 2011م.